لويس برايل

بصيرة المستقبل

obeikan.com

هـذه قصـة مدهشـة حقـا.. تدعـو إلى التأمـل والإعجـاب.. لأن صاحبهـا مكفـوف لكنـه أضـاء نـور الأمـل لأصدقائـه مـن مكفـوفي البشـرية.

لم تكـن تختلـف بلـدة كوبفـراي شـرقي باريـس عـن غيرهـا مـن البـلاد الصغـيرة لكـن كتـب لهـا المجـد.. حينمـا ولـد فيهـا لويـس برايـل فـى ٤يناير١٨٠٩م.

كان أبـوه يعمـل فـى صناعـة سـروج الخيـل ويسـكن فـى بيـت صغـير مـن الحجـر عنـد قاعـدة التـل.. والغريـب أنـه لم يكـن يتوقـع أن تلـد زوجتـه لكـبر سـنها.

ويشـب لويـس.. وبـدأ فـى الثالثـة مـن عمـره يخـرج ليحضـر لأمـه مـا تشـاء مـن السـوق.. ثـم يعـود ويجلـس إلى أبيـه وهـو يثقـب الجلـد بمخـرازه.. ويصنـع الشـرائط.. ويعقـد العقـد.. ويلصـق بالسـرج مشـابك معدنيـة لامعـة.. وكثـيراً مـا كان يسـاعده بقـدر سـنه فيناولـه الخيـط أو الشـرائط أو المشـابك.

ولأن لويـس كان أصغـر الأبنـاء.. فقـد نـال مـن أبيـه تدليـلاً كبـيراً ومـن أمـه حنانـاً وحبـاً عميقـاً.

وقبـل أن يبلـغ الرابعـة مـن عمـره.. كان فـى دكان أبيـه.. وانتهـز فرصـة خـروج أبيـه مـن الـدكان.. فأخـذ يلهـو بمثقـاب الجلـد.. فاندفـع المثقـاب إلى إحـدى عينيـه ففقأهـا.. ثـم لم تلبـث عينـه الأخـرى أن أصيبـت.

وأخفقت محاولات الأب مع الأطباء لإنقاذ ولده.. وشاركه أهل البلد فى مصابه الأليم.. أما الأم فقد انتابها حزن شديد على مصير ولدها.

كان الأب قد رسم لولده مستقبلا مثل إخوته فى سلك التعليم.. لكن بدا له أن أحلامه تلك قد أصبحت وهما كبيراً..

لم يكن أمام لويس إلا أن يمارس حياته كما يفعل كل المكفوفين فى العالم.. فبدأ يتعلم شيئا فشيئا القيام بأعمال كثيرة معتمداً على نفسه.. ممسكاً بعصاً صغيرة ترشده عن موضع الأشياء.

ثم ها هو يخرج إلى الطريق ليميز أصوات العربات والقطارات.. ونهيق الحمار وصهيل الخيل.. ونباح الكلب.

وقد تعلم بمرور الأيام أن يصعد الطريق قاصداً سوق البلدة – الذى سمى بعد ذلك ميدان برايل – وكان يجد لذة فى اختلاطه بالناس.

ثم أرسله أبوه إلى المدرسة فتعلم فيها حروف الهجاء والحساب.. وأدهش أساتذته بذكائه.. وذاكرته الحافظة.. وفهمه العميق.. وحبه للمعرفة.

ويشاء القدر أن يموت أبوه وهو فى سن العاشرة.. وكان لويس آنذاك فى مدرسة المكفوفين فى باريس.. وكانت هذه المدرسة قد أنشاها صبي يسمى (هاوي) كان فقيراً ثم اهتم بالمكفوفين وجمع المال وأنشأ بها هذه المدرسة.

وأتاحت هذه المدرسة مجالاً جديداً أمام لويس.. فقد أنشأ ناظرها الدكتور جيليه مجموعة من الحرف اليدوية يمارسها المكفوفون من الصبيان.

ويبدو على لويس اهتمامه بالموسيقى.. فأخذ يعزف ويغني مع زملائه من المكفوفين.. ويشاركهم فى الزيارات والحفلات.

وسرعان ما تفوق لويس فى القراءة والكتابة والموسيقى والصناعات اليدوية.. وكان فى مقدمة التلاميذ تحمساً للعلم والعمل.. وقبل أن يبلغ العشرين كان عازفاً ماهراً على آلتي الفيولينا والأرغن..

وبدأ لويس تجواله فى مدينة باريس حباً فى المعرفة.

وعندما حان موعد التخرج فى المدرسة طلب إليه المسئولون أن يبقى معلماً مدرياً للتلاميذ.. فعين أستاذاً فى عام ١٨٢٨م لتدريس التاريخ والهندسة والجبر.. وأحبه التلاميذ واستجابوا إلى توجيهاته.

وأدرك لويس أكثر مما أدرك هاوي.. ود. جيليه – وكلاهما مبصر – أن المكفوف يستطيع أن يفعل كل شئ مثل المبصرين.

أخذ يتأمل طريقة هاوي فى تعليم المكفوفين واكتشف عيوبها.. ثم قرر أن يبتدع طريقة أكثر تطوراً وبساطة فى التعليم.

وكان قد قرأ أيضاً عن محاولة أخرى قام بها (تشاري باربيه) تحت مسمى (طريقة الكتابة والقراءة الليلية) وكان

الغرض منها نقل المعلومات السرية فى ساحة القتال فى الظلام حيث كان باريه يعمل فى الجيش وكانت مدارس المكفوفين تستخدم كل هذه الطرق لتعليمهم.

أخذ لويس أيضا يكشف عيوب هذه الطريقة.. حيث تمثل صعوبة للمكفوف لأنها تتطلب دائما شفرة تمثل دليلاً لفك رموزها.. ومن ثم فهي طريقة معقدة.. بالإضافة إلى أنها تستغرق مساحة كبيرة فى الكتابة وهو أمر غير عملي..

وبالتالي أخذ يفكر لويس فى طريقة تجعل مساحة الأحرف صغيرة.. وتسهل على المكفوف لمسها دون صعوبة دون الرجوع إلى الشفرة.

ونجح لويس برايل فى اختراعه الذى جربه فى المدرسة وسعد به التلاميذ وبدأ ينتشر فى مدارس المكفوفين كنظام متقدم متطور يسير.

ويبلغ لويس الأربعين من عمره.. وكان سعيداً بما توصل إليه من اختراع هذه اللوحة للمكفوفين التى سهلت عليهم القراءة والكتابة بطريقة اللمس.. فقرر التخلي عن التدريس لسوء صحته.

بدأت صحته فى الانحدار.. ولازمه السعال بدون توقف.. لكنه ظل يشارك فى إلقاء المحاضرات التى يدعي إليها هنا وهناك.

وكان الحفل الختامي لتسليمه جائزة كبيرة.. فحضره وهو يحتضر وجاء عيد الميلاد عام ١٨٥١ حيث أصيب بنزيف حاد.. ولم يمهله المرض كثيراً، حتى فارق الحياة فى ١٦ يناير ١٨٥٢م ودفن فى مقابر قريته.. بعد أن انتشرت طريقته فى أنحاء العالم سواء فى لغة الكتابة العادية.. أو الاختزال فى الرياضة.. أو الموسيقى.

وكانت المفاجأة بعد وفاته حينما اكتشفوا صندوقاً صغيراً كان قد أوصي بحرقه بعد وفاته.. ولما كشفوا محتوياته وجدوا إيصالات إدانة وقروضاً كان قد وهبها لأصدقائه ومعاونيه فى باريس من المكفوفين.

وفى مدرسة باريس التى تعلم فيها يزاح الستار فى عام ١٨٨٧م عن تمثال نصفي للويس برايل.. بعد أن سجل ملحمة من الإرادة.. وبعد أن رسم المستقبل لكل مكفوف قادم بعده.. بالنور والخلود.